{ قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ }(1)

فيه مسائل:

المسألة الأولى: في قوله: { قُلْ } فوائد أحدها: أنه سبحانه لما أمر بقراءة سورة الإخلاص تنزيهاً له عما لا يليق به في ذاته و صفاته، و كان ذلك من أعظم الطاعات، فكأن العبد قال: إلهنا هذه الطاعة عظيمة جداً لا أثق بنفسي في الوفاء بها، فأجاب بأن قال: { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ } أي استعذ بالله، و التجيء إليه حتى يوفقك لهذه الطاعة على أكمل الوجوه و ثانيها: أن الكفار لما سألوا الرسول عن نسب الله و صفته، فكأن الرسول عليه السلام قال: كيف أنجو من هؤلاء الجهال الذين تجاسروا و قالوا: فيك مالا يليق بك، فقال الله: { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ } أي استعذ بي حتى أصونك عن شرهم و ثالثها: كأنه تعالى يقول: من التجأ إلى بيتي شرفته و جعلته آمناً فقلت:

{و من دخله كان آمناً}

[آل عمران: 97] فالتجيء أنت أيضاً إلي حتى أجعلك آمناً: فقل أعوذ برب الفلق.

المسألة الثانية: اختلفوا في أنه هل يجوز الاستعانة بالرقى و العوذ أم لا؟ منهم قال: إنه يجوز و احتجوا بوجوه أحدها: ما روي أن رسول الله صلى الله عليه و سلم اشتكى فرقاه جبريل عليه السلام، فقال: بسم الله أرقيك من كل شيء يؤذيك، و الله يشفيك وثانيها: قال ابن عباس: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعلمنا من الأوجاع كلها

و الحمى هذا الدعاء: **" بسم الله الكريم، أعوذ بالله العظيم من شر كل عرق نعار، و من شر حر النار "** و ثالثها: قال عليه السلام: من دخل على مريض لم يحضره أجله؛ فقال: أسأل الله العظيم رب العرش العظيم أن يشفيك سبع مرات شفي و رابعها: عن علي عليه السلام قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم إذا دخل على مريض قال: **" أذهب البأس رب الناس، اشف أنت الشافي، لا شافي إلا أنت "** و خامسها: عن ابن عباس قال: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم يعوذ الحسن و الحسين يقول: **" أعيذكما بكلمات الله التامة من كل شيطان و هامة، و من كل عين لامة "** و يقول: هكذا كان أبي إبراهيم يعوذ ابنيه إسماعيل و إسحاق و سادسها: قال عثمان بن أبي العاص الثقفي: قدمت على رسول الله و بي وجع قد كاد يبطلني فقال رسول الله صلى الله عليه و سلم: **" اجعل يدك اليمنى عليه، و قل بسم الله أعوذ بعزة الله و قدرته من شر ما أجد سبع مرات "** ففعلت ذلك فشفاني الله و سابعها: روي أنه عليه السلام كان إذا سافر فنزل منزلاً يقول: **" يا أرض، ربي و ربك الله أعوذ بالله من شرك و شر ما فيك و شر ما يخرج منك، و شر ما يدب عليك، و أعوذ بالله من أسد و أسود و حية و عقرب، و من شر ساكني البلد و والد و ما ولد "**

و ثامنها: قالت عائشة: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم، إذا اشتكى شيئاً من جسده قرأ: { قُلْ هُوَ ٱللَّهُ أَحَدٌ } و المعوذتين في كفه اليمنى و مسح بها المكان الذي يشتكي و من الناس من منع من الرقى لما روي عن جابر، قال نهى رسول الله صلى الله عليه و سلم عن الرقى، و قال عليه السلام: **" إن لله عباداً لا يكتوون و لا**

يسترقون و على ربهم يوكلون " و قال عليه السلام: **" لم يوكل على الله من اكتوى و استرقى "** و أجيب عنه بأنه يحتمل أن يكون النهي عن الرقى المجهولة التي لا تعرف حقائقها، فأما ما كان له أصل موثوق، فلا نهي عنه، و اختلفوا في التعليق، فروى أنه عليه السلام قال: **" من علق شيئاً وكل إليه "** و عن ابن مسعود: أنه رأى على أم ولده تميمة مربوطة بعضدها، فجذبها جذباً عنيفاً فقطعها، و منهم من جوزه، سئل الباقر عليه السلام عن التعويذ يعلق على الصبيان فرخص فيه، و اختلفوا في النفث أيضاً، فروي عن عائشة أنها قالت: كان رسول الله صلى الله عليه و سلم ينفث على نفسه إذا اشتكى بالمعوذات و يمسح بيده، فلما اشتكى رسول الله صلى الله عليه و سلم وجعه الذي توفي فيه طفقت أنفث عليه بالمعوذات التي كان ينفث بها على نفسه، و عنه عليه السلام: «أنه كان إذا أخذ مضجعه نفث في يديه و قرأ فيهما بالمعوذات، ثم مسح بهما جسده» و منهم من أنكر النفث، قال عكرمة: لا ينبغي للراقي أن ينفث و لا يمسح و لا يعقد. و عن إبراهيم قال: كانوا يكرهون النفث في الرقى، و قال بعضهم: دخلت على الضحاك و هو وجيع، فقلت: ألا أعوذك يا أبا محمد؟ قال: بلى و لكن لا تنفث، فعوذته بالمعوذتين. قال الحليمي: الذي روي عن عكرمة أنه ينبغي للراقي أن لا ينفث و لا يمسح و لا يعقد، فكأنه ذهب فيه إلى أن الله تعالى جعل النفث في العقد مما يستعاذ منه، فوجب أن يكون منهياً عنه إلا أن هذا ضعيف، لأن النفث في العقد إنما يكون مذموماً إذا كان سحراً مضراً بالأرواح و الأبدان. فأما إذا كان هذا النفث لإصلاح الأرواح و الأبدان وجب أن لا يكون حراماً.

المسألة الثالثة: أنه تعالى قال في مفتاح القراءة:

{فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ}

[الأعراف: 200] و قال ههنا: { أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ } و في موضع آخر:

{وَ قُلْ رَّبِّ أَعُوذُ بِكَ مِنْ هَمَزَاتِ ٱلشَّيٰطِينِ}

[المؤمنون: 97] و جاء في الأحاديث: أعوذ بكلمات الله التامات و لا شك أن أفضل أسماء الله هو الله، و أما الرب فإنه قد يطلق على غيره، قال تعالى:

{ءأَرْبَابٌ مُّتَّفَرِّقُونَ}

[يوسف: 39] فما السبب في أنه تعالى عند الأمر بالتعوذ لم يقل: أعوذ بالله بل قال: { بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ }؟ و أجابوا عنه من وجوه: أحدها: أنه في قوله:

{فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرءانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ}

[النحل: 98] إنما أمره بالاستعاذة هناك لأجل قراءة القرآن، و إنما أمره بالاستعاذة ههنا في هذه السورة لأجل حفظ النفس و البدن عن السحر، و المهم الأول أعظم، فلا جرم ذكر هناك الاسم الأعظم و ثانيها: أن الشيطان يبالغ حال منعك من العبادة أشد مبالغة في إيصال الضر إلى بدنك و روحك، فلا جرم ذكر الاسم الأعظم هناك دون ههنا و ثالثها: أن اسم الرب يشير إلى التربية فكأنه جعل تربية الله له فيما تقدم وسيلة إلى تربيته له في الزمان الآتي، أو كان العبد يقول: التربية و الإحسان حرفتك فلا تهملني، و لا تخيب رجائي ورابعها: أن بالتربية صار شارعاً في الإحسان، و الشروع ملزم وخامسها: أن هذه السورة آخر سور القرآن فذكر لفظ الرب تنبيهاً على أنه سبحانه لا تنقطع عنك تربيته و إحسانه، فإن قيل: إنه ختم القرآن على اسم الإله حيث قال: { مَلِكِ ٱلنَّاسِ * إِلَٰهِ ٱلنَّاسِ } قلنا: فيه لطيفة وهي كونه تعالى قال: قل أعوذ بمن هو ربي ولكنه إله قاهر لوسوسة الخناس فهو كالأب المشفق الذي يقول لرجع عند مهماتك إلى أبيك المشفق عليك الذي هو كالسيف القاطع و النار المحرقة

لأعدائك فيكون هذا من أعظم أنواع الوعد بالإحسان و التربية و سادسها: كان الحق قال لمحمد عليه السلام: قلبك لي فلا تدخل فيه حب غيري، و لسانك لي فلا تذكر به أحداً غيري، وبدنك لي فلا تشغله بخدمة غيري، و إن أردت شيئاً فلا تطلبه إلا مني، فإن أردت العلم فقل: رب زدني علماً و إن أردت الدنيا فاسألوا الله من فضله، و إن خفت ضرراً فقل: أعوذ برب الفلق فإني أنا الذي وصفت نفسي بأني خالق الإصباح. و بأني فالق الحب و النوى، و ما فعلت هذه الأشياء إلا لأجلك، فإذا كنت أفعل كل هذه الأمور لأجلك، أفلا أصونك عن الآفات و المخافات.

المسألة الرابعة: ذكروا في: الفلق وجوهاً أحدها: أنه الصبح وهو قول الأكثرين قال الزجاج: لأن الليل يفلق عنه الصبح ويفرق فعل بمعنى مفعول يقال: هو أبين من فلق الصبح ومن فرق الصبح وتخصيصه في التعوذ لوجوه الأول: أن القادر على إزالة هذه الظلمات الشديدة عن كل هذا العالم يقدر أيضاً أن يدفع عن العائذ كل ما يخافه ويخشاه الثاني: أن طلوع الصبح كالمثال لمجيء الفرج، فكما أن الإنسان في الليل يكون منتظراً لطلوع الصباح كذلك الخائف يكون مترقياً لطلوع صباح النجاح الثالث: أن الصبح كالبشرى فإن الإنسان في الظلام يكون كلحم على وضم، فإذا ظهر الصبح فكأنه صاح بالأمان وبشر بالفوج، فلهذا السبب يجد كل مريض ومهموم خفة في وقت السحر، فالحق سبحانه يقول: قل أعوذ برب يعطي إنعام فلق الصبح قبل السؤال، فكيف بعد السؤال الرابع: قال بعضهم: إن يوسف عليه السلام لما ألقي في الجب وجعت ركبته وجعاً شديداً فبات ليلته ساهراً فلما قرب طلوع الصبح نزل جبريل عليه السلام بإذن الله يسليه ويأمره بأن يدعوا ربه فقال: يا جبريل ادع أنت وأؤمن أنا فدعا جبريل وأمن يوسف فكشف الله ما كان به من الضر، فلما طاب وقت يوسف قال جبريل: وأنا أدعو أيضاً وتؤمن أنت، فسأل يوسف ربه أن يكشف الضر عن جميع

أهل البلاء في ذلك الوقت، فلا جرم ما من مريض إلا ويجد نوع خفة في آخر الليل، وروي أن دعاءه في الجب: يا عدتي في شدتي ويا مؤنسي في وحشتي ويا راحم غربتي ويا كاشف كربتي ويا مجيب دعوتي، ويا إلهي وإله آبائي إبراهيم وإسحق ويعقوب ارحم صغر سني وضعف ركني وقلة حيلتي يا حي يا قيوم يا ذا الجلال والإكرام الخامس: لعل تخصيص الصبح بالذكر في هذا الموضع لأنه وقت دعاء المضطرين وإجابة الملهوفين فكأنه يقول: قل أعوذ برب الوقت الذي يفرج فيه عن كل مهموم السادس: يحتمل أنه خص الصبح بالذكر لأنه أنموذج من يوم القيامة لأن الخلق كالأموات والدور كالقبور، ثم منهم من يخرج من داره مفلساً عرياناً لا يلتفت إليه، ومنهم من كان مديوناً فيجر إلى الحبس، ومنهم من كان ملكاً مطاعاً فتقدم إليه المراكب ويقوم الناس بين يديه، كذا في يوم القيامة بعضهم مفلس عن الثواب عار عن لباس التقوى يجر إلى الملك الجبار، ومن عبد كان مطيعاً لربه في الدنيا فصار ملكاً مطاعاً في العقبى يقدم إليه البراق السابع: يحتمل أنه تعالى خص الصبح بالذكر لأنه وقت الصلاة الجامعة لأحوال القيامة فالقيام في الصلاة يذكر القيام يوم القيامة كما قال:

{يَوْمَ يَقُومُ ٱلنَّاسُ لِرَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ}

[المطففين: 6] والقراءة في الصلاة تذكر قراءة الكتب والركوع في الصلاة يذكر من القيامة قوله:

{نَاكِسُواْ رُؤُوسَهُمْ}

[السجدة: 12] والسجود في الصلاة يذكر قوله:

{وَيُدْعَوْنَ إِلَى ٱلسُّجُودِ فَلاَ يَسْتَطِيعُونَ}

[القلم: 42] والقعود يذكر قوله:

{وَتَرَىٰ كُلَّ أُمَّةٍ جَاثِيَةً}

[الجاثية: 28] فكان العبد يقول: إلهي كما خلصتني من ظلمة الليل فخلصني من هذه الأهوال، وإنما خص وقت صلاة الصبح لأن لها مزيد شرف على ما قال:

{إن قرآن الفجر كان مشهوداً}

[الإسراء: 78] أي تحضرها ملائكة الليل والنهار الثامن: أنه وقت الاستغفار والتضرع على ما قال:

{وَ ٱلْمُسْتَغْفِرِينَ بِٱلأَسْحَارِ}

[آل عمران: 17] القول الثاني: في الفلق أنه عبارة عن كل ما يفلقه الله كالأرض عن النبات:

{إِنَّ ٱللَّهَ فَالِقُ ٱلْحَبِّ وَٱلنَّوَىٰ}

[الأنعام: 95] و الجبال عن العيون:

{و إن من الحجارة لما يتفجر منه الأَنهار}

[البقرة: 74] و السحاب عن الأمطار و الأرحام عن الأولاد و البيض عن الفرخ و القلوب عن المعارف، و إذا تأملت الخلق تبين لك أن أكثره عن انقلاب، بل العدم كأنه ظلمة و النور كأنه الوجود، و ثبت أنه كان الله في الأزل و لم يكن معه شيء ألبتة فكأنه سبحانه هو الذي فلق بحار ظلمات العدم بأنوار الإيجاد و التكوين و الإبداع، فهذا هو المراد من الفلق، و هذا التأويل أقرب من وجوه أحدها: هو أن الموجود إما الخالق و إما الخلق، فإذا فسرنا الفلق بهذا التفسير صار كأنه قال: قل أعوذ برب جميع الممكنات، و مكون كل المحدثات و المبدعات فيكون التعظيم فيه أعظم، و يكون الصبح أحد الأمور الداخلة في هذا المعنى و ثانيها: أن كل موجود إما واجب لذاته أو ممكن لذاته، و الممكن لذاته يكون موجوداً بغيره، معدوماً في حد ذاته، فإذن

كل ممكن فلا بد له من مؤثر يؤثر فيه حال حدوثه و يبقيه حال بقائه، فإن الممكن حال بقائه يفتقر إلى المؤثر و التربية، إشارة لا إلى حال الحدوث بل إلى حال البقاء، فكأنه يقول: إنك لست محتاجاً إلى حال الحدوث فقط بل في حال الحدوث و حال البقاء معاً في الذات و في جميع الصفات، فقوله: { بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ } يدل على احتياج كل ما عداه إليه حالتي الحدوث و البقاء في الماهية و الوجود بحسب الذوات و الصفات و سر التوحيد لا يصفو عن شوائب الشرك إلا عند مشاهدة هذه المعاني، و ثالثها: أن التصوير و التكوين في الظلمة أصعب منه في النور، فكأنه يقول: أنا الذي أفعل ما أفعله قبل طلوع الأنوار و ظهور الأضواء ومثل ذلك مما لا يتأتى إلا بالعلم التام و الحكمة البالغة و إليه الإشارة بقوله:

{هُوَ ٱلَّذِي يُصَوِّرُكُمْ فِي ٱلأَرْحَامِ كَيْفَ يَشَاء لا إِلَهَ إِلاَّ هُوَ ٱلْعَزِيزُ ٱلْحَكِيمُ}
[آل عمران: 6].

القول الثالث: أنه واد في جهنم أوجب فيها من قولهم لما اطمأن من الأرض الفلق و الجمع فلقان، وعن بعض الصحابة أنه قدم الشام فرآى دور أهل الذمة وما هم فيه من خصب العيش فقال لا أبالي، أليس من ورائهم الفلق، فقيل: و ما الفلق؟ قال: بيت في جهنم إذا فتح صاح جميع أهل النار من شدة حره، و إنما خصه بالذكر ههنا لأنه هو القادر على مثل هذا التعذيب العظيم الخارج عن حد أوهام الخلق، ثم قد ثبت أن رحمته أعظم و أكمل و أتم من عذابه، فكأنه يقول: يا صاحب العذاب الشديد أعوذ برحمتك التي هي أعظم و أكمل و أتم و أسبق و أقدم من عذابك.

{ مِن شَرِّ مَا خَلَقَ }(2)

و فيه مسألتان:

المسألة الأولى: في تفسير هذه الآية وجوه أحدها: قال عطاء عن ابن عباس: يريد إبليس خاصة لأن الله تعالى لم يخلق خلقاً هو شر منه و لأن السورة إنما نزلت في الاستعاذة من السحر، و ذلك إنما يتم بإبليس و بأعوانه و جنوده و ثانيها: يريد جهنم كأنه يقول: قل أعوذ برب جهنم و من شدائد ما خلق فيها و ثالثها: { مِن شَرّ مَا خَلَقَ } يريد من شر أصناف الحيوانات المؤذياب كالسباع و الهوام و غيرهما، و يجوز أن يدخل فيه من يؤذيني من الجن و الإنس أيضاً و وصف أفعالها بأنها شر، و إنما جاز إدخال الجن و الإنسان تحت لفظة (ما)، لأن الغلبة لما حصلت في جانب غير العقلاء حسن استعمال لفظة (ما) فيه، لأن العبرة بالأغلب أيضاً و يدخل فيه شرور الأطعمة الممرضة و شرور الماء و النار، فإن قيل الآلام الحاصلة عقيب الماء و النار و لدغ الحية و العقرب حاصلة بخلق الله تعالى ابتداء، على قول أكثر المتكلمين، أو متولدة من قوى خلقها الله تعالى في هذه الأجرام، على ما هو قول جمهور الحكماء و بعض المتكلمين، و على التقديرين فيصير حاصل الآية أنه تعالى أمر الرسول عليه السلام بأن يستعيذ بالله من الله، فما معناه؟ قلنا: و أي بأس بذلك، و لقد صرح عليه السلام بذلك، فقال: " **و أعوذ بك منك** " و رابعها: أراد به ما خلق من الأمراض و الأسقام و القحط و أنواع المحن و الآفات، و زعم الجبائي و القاضي أن هذا التفسير باطل، لأن فعل الله تعالى لا يجوز أن يوصف بأنه شر، قالوا: و يدل عليه وجوه الأول: أنه يلزم على هذا التقدير أن الذي أمر بالتعوذ منه هو الذي أمرنا أن نتعوذ به، و ذلك

متناقض و الثاني: أن أفعال الله كلها حكمة و صواب، و ذلك لا يجوز أن يقال: إنه شر و الثالث: أن فعل الله لو كان شراً لوصف فاعله بأنه شرير و يتعالى الله عن ذلك و الجواب: عن الأول أنا بينا أنه لا امتناع في قوله أعوذ بك منك؟ و عن الثاني أن الإنسان لما تألم به فإنه يعد شراً، فورد اللفظ على وفق قوله، كما في قوله:

{وَ جَزَاء سَيِّئَةٍ سَيِّئَةٌ مِّثْلُهَا}

[الشورى: 40] وقوله:

{فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ فَٱعْتَدُواْ عَلَيْهِ بِمِثْلِ مَا ٱعْتَدَىٰ عَلَيْكُمْ}

[البقرة: 194] و عن الثالث أن أسماء الله توقيفية لا اصطلاحية، ثم الذي يدل على جواز تسمية الأمراض و الأسقام بأنها شرور قوله تعالى:

{إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعاً}

[المعارج: 20] وقوله:

{وَ إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ فَذُو دُعَاء عَرِيضٍ}

[فصلت: 51] و كان عليه السلام يقول: " **و أعوذ بك من شر طوارق الليل و النهار** ". المسألة الثانية: طعن بعض الملحدة في قوله: { قُلْ أَعُوذُ بِرَبِّ ٱلْفَلَقِ * مِن شَرِّ مَا خَلَقَ } من وجوه أحدها: أن المستعاذ منه أهو واقع بقضاء الله و قدره، أو لا بقضاء الله و لا بقدره؟ فإن كان الأول فكيف أمر بأن يستعيذ بالله منه، و ذلك لأن ما قضى الله به و قدره فهو واقع، فكأنه تعالى يقول: الشيء الذي قضيت بوقوعه، و هو لا بد واقع فاستعذ بي منه حتى لا أوقعه، و إن لم يكن بقضائه وقدره فذلك يقدح في ملك الله و ملكوته و ثانيها: أن المستعاذ منه إن كان معلوم الوقوع فلا دافع له، فلا فائدة في الاستعاذة و إن كان معلوم اللاوقوع، فلا حاجة إلى الاستعاذة و ثالثها: أن المستعاذ منه إن كان مصلحة فكيف رغب المكلف في طلب دفعه و منعه، و إن

كان مفسدة فكيف خلقه و قدره، و اعلم أن الجواب عن أمثال هذه الشبهات، أن يقال إنه:

{لاَ يُسْأَلُ عَمَّا يَفْعَلُ}

[الأنبياء: 23] و قد تكرر هذا الكلام في هذا الكتاب.

{ وَ مِن شَرِّ غَاسِقٍ إِذَا وَقَبَ }(3)

ذكروا في الغاسق وجوهاً أحدها: أن الغاسق هو الليل إذا عظم ظلامه من قوله:

{إلى غسق الليل}

[الإسراء: 78] و منه غسقت العين إذا امتلأت دمعاً و غسقت الجراحة إذا امتلأت دماً، و هذا قول الفراء و أبي عبيدة، و أنشد ابن قيس:

إن هذا الليل قد غسقا و اشتكيت الهم و الأرقا

و قال الزجاج الغاسق في اللغة هو البارد، و سمي الليل غاسقاً لأنه أبرد من النهار، و منه قوله إنه الزمهرير و ثالثها: قال قوم: الغاسق و الغساق هو السائل من قولهم: غسقت العين تغسق غسقاً إذا سالت بالماء، و سمي الليل غاسقاً لانصباب ظلامه على الأرض، أما الوقوب فهو الدخول في شيء آخر بحيث يغيب عن العين، يقال: وقب يقب وقوباً إذا دخل، الوقبة النقرة لأنه يدخل فيها الماء، و الإيقاب إدخال الشيء في الوقبة، هذا ما يتعلق باللغة و للمفسرين في الآية أقوال: أحدها: أن الغاسق إذا وقب هو الليل إذا دخل، و إنما أمر أن يتعوذ من شر الليل لأن في الليل تخرج

السباع من آجامها و الهوام من مكانها، و يهجم السارق و المكابر و يقع الحريق و يقل فيه الغوث، و لذلك لو شهر (معتد) سلاحاً على إنسان ليلاً فقتله المشهور عليه لا يلزمه قصاص، و لو كان نهاراً يلزمه لأنه يوجد فيه الغوث، و قال قوم: إن في الليل تنتشر الأرواح المؤذية المسماة بالجن و الشياطين، و ذلك لأن قوة شعاع الشمس كأنها تقهرهم، أما في الليل فيحصل لهم نوع استيلاء و ثانيها: أن الغاسق إذا وقب هو القمر، قال ابن قتيبة: الغاسق القمر سمي به لأنه يكسف فيغسق، أي يذهب ضؤوه و يسود، (و) وقوبه دخوله في ذلك الاسوداد، روى أبو سلمة عن عائشة أنه أخذ رسول الله صلى الله عليه و سلم بيدها و أشار إلى القمر، و قال: **" استعيذي بالله من شر هذا فإنه الغاسق إذا وقب "** قال ابن قتيبة: و معنى قوله: تعوذي بالله من شره إذا وقب أي إذا دخل في الكسوف، و عندي فيه وجه آخر: و هو أنه صح أن القمر في جرمه غير مستنير بل هو مظلم، فهذا هو المراد من كونه غاسقاً، و أما وقوبه فهو انمحاء نوره في آخر الشهر، و المنجمون يقولون: إنه في آخر الشهر يكون منحوساً قليل القوة لأنه لا يزال ينتقص نوره فبسبب ذلك تزداد نحوسته، و لذلك فإن السحرة إنما يشتغلون بالسحر المورث للتمريض في هذا الوقت، و هذا مناسب لسبب نزول السورة فإنها إنما نزلت لأجل أنهم سحروا النبي صلى الله عليه و سلم لأجل التمريض و ثالثها: قال ابن زيد: الغاسق إذا وقب يعني الثريا إذا سقطت قال، و كانت الأسقام تكثر عند وقوعها، و ترتفع عند طلوعها، و على هذا تسمى الثريا غاسقاً، لانصبابه عند وقوعه في المغرب، و وقوبه دخوله تحت الأرض و غيبوبته عن الأعين و رابعها: قال صاحب الكشاف: يجوز أن يراد بالغاسق الأسود من الحيات و وقوبه ضربه و نقبه، و الوقب و النقب واحد، و اعلم أن هذا التأويل أضعف الوجوه المذكورة و خامسها: الغاسق: { إِذَا وَقَبَ } هو الشمس إذا غابت و إنما سميت غاسقاً لأنها في

الفلك تسبح فسمي حركتها و جرياها بالغسق، و وقوبها غيبتها و دخولها تحت الأرض.

{ وَمِن شَرِّ ٱلنَّفَّاثَاتِ فِي ٱلْعُقَدِ }(4)

فيه مسائل:

المسألة الأولى: في الآية قولان: الأول: أن النفث النفخ مع ريق، هكذا قاله صاحب الكشاف، ومنهم من قال: إنه النفخ فقط، ومنه قوله عليه السلام: " **إن جبريل نفث في روعي** " والعقد جمع عقدة، والسبب فيه أن الساحر إذا أخذ في قراءة الرقية أخذ خيطاً، ولا يزال يعقد عليه عقداً بعد عقد وينفث في تلك العقد، وإنما أنت النفاثات لوجوه أحدها: أن هذه الصناعة إنما تعرف بالنساء لأنهن يعقدن وينفثن، وذلك لأن الأصل الأعظم فيه ربط القلب بذلك الأمر وإحكام الهمة والوهم فيه، وذلك إنما يتأتى من النساء لقلة علمهن وشدة شهوتهن، فلا جرم كان هذا العمل منهن أقوى، قال أبو عبيدة: النفاثات هن بنات لبيد بن أعصم اليهودي سحرن النبي صلى الله عليه وسلم وثانيها: أن المراد من: النفاثات النفوس وثالثها: المراد منها الجماعات، وذلك لأنه كلما كان اجتماع السحرة على العمل الواحد أكثر كان التأثير أشد القول الثاني: وهو اختيار أبي مسلم: { مِن شَرّ ٱلنَّفَّٰثَٰتِ } أي النساء في العقد، أي في عزائم الرجال وآرائهم وهو مستعار من عقد الحبال، والنفث وهو تليين العقدة من الحبل بريق يقذفه عليه ليصير حله سهلاً، فمعنى الآية أن النساء لأجل كثرة حبهن في قلوب الرجال يتصرفن في الرجال يحولنهم من رأي إلى رأي، ومن عزيمة إلى عزيمة، فأمر الله

رسوله بالتعوذ من شرهن كقوله:

{إِنَّ مِنْ أَزْوَٰجِكُمْ وَأَوْلَٰدِكُمْ عَدُوّاً لَّكُمْ فَٱحْذَرُوهُمْ}

[التغابن: 14] فلذلك عظم الله كيدهن فقال:

{إِنَّ كَيْدَكُنَّ عَظِيمٌ}

[يوسف: 28].

واعلم أن هذا القول حسن، لولا أنه على خلاف قول أكثر المفسرين.

المسألة الثالثة: أنكرت المعتزلة تأثير السحر، وقد تقدمت هذه المسألة، ثم قالوا: سبب الاستعاذة من شرهن لثلاثة أوجه أحدها: أن يستعاذ من إثم عملهن في السحر والثاني: أن يستعاذ من فتنتهن الناس بسحرهن والثالث: أن يستعاذ من إطعامهن الأطعمة الرديئة المورثة للجنون والموت.

{ وَمِن شَرِّ حَاسِدٍ إِذَا حَسَدَ }(5)

من المعلوم أن الحاسد هو الذي تشتد محبته لإزالة نعمة الغير إليه، ولا يكاد يكون كذلك إلا ولو تمكن من ذلك بالحيل لفعل، فلذلك أمر الله بالتعوذ منه، وقد دخل في هذه السورة كل شر يتوقى ويتحرز منه ديناً ودنياً، فلذلك لما نزلت فرح رسول الله صلى الله عليه وسلم بنزولها لكونها مع ما يليها جامعة في التعوذ لكل أمر، ويجوز أن يراد بشر الحاسد إثمه وسماجة حاله في وقت حسده وإظهاره أثره. بقي هنا سؤالان:

السؤال الأول: قوله: { مِن شَرّ مَا خَلَقَ } عام في كل ما يستعاذ منه، فما معنى الاستعاذة بعده من الغاسق والنفاثات والحاسد الجواب: تنبيهاً على أن هذه الشرور أعظم أنواع الشر.

السؤال الثاني: لم عرف بعض المستعاذ منه ونكر بعضه؟ الجواب: عرف النفاثات لأن كل نفاثة شريرة، ونكر غاسقاً لأنه ليس كل غاسق شريراً، وأيضاً ليس كل حاسد شريراً، بل رب حسد يكون محموداً وهو الحسد في الخيرات.

والله سبحانه وتعالى أعلم، وصلى الله على سيدنا محمد، وعلى آله وصحبه وسلم.